مجلة العلوم الاجتماعية والإنسانية

جامعة محمد بوضياف بالمسيلة

القضية الجزائرية في الخطاب السياسي لحمدان بن عثمان خوجة بعد الاحتلال الفرنسي للجزائر

د. حميدي أبو بكر الصديق

جامعة محمد بوضياف/ المسيلة - الجزائر-

الملخص:

مثل حمدان خوجة شخصية سياسية تصدرت المشهد السياسي الجزائري بعد الاحتلال مباشرة بحكم انتمائه العائلي القريب من السلطة العثمانية بالجزائر، وكونه عارفا بدروب الحكم، إضافة إلى البيئة التي نشأ بها من ضروب الثراء والمعرفة، فضلا عن الرحلات التي قام بها في عدة بلدان خلال مساره العلمي والسياسي شملت: اسطنبول والدول الأوربية (إيطاليا واسبانيا وانجلترا) وتونس. وقد عايش عن كثب الاحتلال الفرنسي للجزائر. وبعد الاحتلال مارس عضوا بلديا بالعاصمة لدى الإدارة الفرنسية في عهد كلوزال معتبرا نفسه وسيطا لتمثيل الجزائريين والدفاع عن حقوقهم.

ورغم تعقد الوضع وخطورته فقد أثبت جرأة في الخطاب وتملك أدوات الخطاب السياسي بروح معاصرة، موجها رسائله للجزائريين والباب العالي لوضعهم عند مسؤولياتهم وتدارك ما يمكن إنقاذه، كما خاطب الفرنسيين بلغة الضمير والعقل والحضارة والعدالة لمراجعة عدوانهم وظلمهم. وانطلاقا من هذه المعطيات استهدفت من هذا البحث الوقوف على طبيعة هذا الجهد في تبني القضية الجزائرية، وما هو مستوى الخطاب السياسي والثقافي الذي حمله حمدان خوجة في كتاباته؟

المنارة للاستشارات

مقدمة

كان الاحتلال الفرنسي للجزائر بعد مخاض عسير من الصراع العسكري والسياسي بين البلدين، ولهذا كان دخوله عنيفا ومدمرا لكل البُنَى السياسية والاجتماعية والثقافية والاقتصادية لدى المجتمع الجزائري. ورغم تعهده باحترام الممتلكات والديانات والعادات إلا أنه نكث كل العهود. وفي ظل هذه الظروف حاولت النخبة السياسية والمثقفة أن تؤدي دورا ولو بجهد المقل وفي حدود الظروف الممكنة وأن ترافع عن الشعب الجزائري والوقوف في وجه المظالم والتجاوزات والجرائم الفرنسية في ظل غياب السيادة الوطنية.

ومن الشخصيات التي استماتت في الدفاع عن القضية الجزائرية في بداية الاحتلال وتعد من المثقفين والسياسيين الذين كان لهم حضورا اجتماعيا وسياسيا: حمدان بن عثمان خوجة والمفتي الكبابطي [1] وابن العنابي،وأحمد بوضربة. . . ، وإن تفاوتت ميادين النضال بينهم لكنهم كانوا يحملون هموما مشتركة. وبحكم الدور الذي لعبه حمدان بن عثمان خوجة على الصعيد الداخلي والخارجي، والصيت الذي حظي به والأثر الذي تركه سيكون محل هذه الدراسة. إضافة إلى المنحى السياسي الذي رسم معالم حياته بحكم أنه كان قريبا من الحكم في العهد العثماني، وعلى تواصل سياسي مع السلطة الفرنسية.

وتشخيصا لبعض ملامح هذه الشخصية وقراءة المشهد توجب علينا البحث عن الخلفيات التي دفعته إلى تبني هذا التوجه السياسي في زمن كانت البلاد قد تَحَكم الاستعمار في أجزاء كبيرة منها؟ وكيف كانت رؤيته للأطراف المختلفة داخليا ومحليا؟ وماهي البيئة التي ساعدته على هذا التكوين والمسار والعلاقات.

وضمن هذا العمل المتواضع نتساءل هل كانت جهوده تصب ضمن بعد وطني؟ أم هي ردود أفعال آنية؟ وهل تعبر هذه الشخصية عن روح المجتمع الثقافية وعن عمق الأزمة التي كانت تعيشها البلاد؟ وما هو مستوى الخطاب السياسي والثقافي الذي حمله في كتاباته؟

أولا: البيئة التي ظهر فيها

يعد حمدان بن عثمان خوجة (1255-1187هـ/1773-1840)[2] من الشخصيات النادرة في التي برزت مع مطلع الاحتلال الفرنسي للجزائر من خلال التعاطي السياسي مع الأحداث، والدفاع عن القضية الوطنية بقلمه والتنقل بين الساسة لطرح المشكل الجزائري، ورغم تعقد الوضع وخطورته فقد أثبت جرأة في الخطاب وتملك أدوات

المنارة للاستشارات

الخطاب السياسي بروح معاصرة موجها رسائله للجزائريين والباب العالي لوضعهم عند مسؤولياتهم وتدارك ما يمكن إنقاذه، كما خاطب الفرنسيين بلغة الضمير والعقل والحضارة والعدالة لمراجعة عدوانهم وظلمهم. فمن الطبيعي أن نبحث عن البيئة التي أكسبته هذه الشخصية ونمت الملكات السياسية لديه.

1/ **البيئة الاجتماعية**: من المعروف أن حمدان خوجة ترعرع في أسرة جزائرية عريقة لها أملاك كبيرة في متيجة من أراضي وبنايات ومحلات تجارية بالعاصمة وضواحيها. فكان خاله محمد أمينا للسكة، ووالده فقيها وأمينا عاما للأيالة "مكتباجي" [3] أو مكتابجي يشرف على السجلات المالية والإدارية وهو منصب هام، وفي هذه المرحلة يعد هذا المنصب الرجل الثاني في الدولة حسب حمدان خوجة وهو أقرب للداي من غيره. [(4)].

وبعد الاحتلال مارس عضو بلدي للعاصمة لدى الإدارة الفرنسية في عهد كلوزال معتبرا نفسه وسيطا لتمثيل الجزائريين والدفاع عن حقوقهم، لكنه لاحظ ازدياد المظالم والانتهاك المتواصل لكل بنود الاتفاق المبرم عشية الاحتلال باحترام الممتلكات والمعتقدات[5]. فواجه ذلك من خلال نضاله السياسي الذي كلفه متاعب كبيرة.

2/ **البيئة العلمية** : تمكن حمدان من الإلمام بالعلوم الدينية وحفظ القرآن، كما درس القانون على أبيه عثمان [6]، وتعلم الكثير من العلوم كالفقه، التاريخ، المنطق، والفلسفة والتصوف والطب، هذا فضلا عن معرفة اللغات كالفرنسية والتركية والإنجليزية، وبالتالي تملك المقومات العلمية التي صقلت شخصيته وأهلته لأدوار كبيرة على الصعيد الداخلي والخارجي. وهناك من وصفه بالعالم الجليل وصاحب قدرة على التلاعب بالمفردات والأفكار وطلاقة الرأي. [(7)] كما مارس التدريس للعلوم الدينية بعد وفاة والده. وكانت ثقافته الواسعة حول العالم الأوربي وقدرته على الكتابة بالفرنسية إحدى الأدوات التي تملكها في الدفاع عن القضية الجزائرية. [8]

3/ البيئة المادية: من المعلوم أن حمدان خوجة قد نشأ في كنف الغنى العائلي، فهو يتكلم عن نفسه أنه صاحب أملاك كبيرة ومما ذكره [9] " كنت أملك بمزارعي في منطقة متيجة عشرة آلاف رأس غنم، وستمائة رأس بقر وأربعمائة ثور للحراثة وستين جملا ومائتي ما بين فحول وفرسان وستين بغلا وعددا آخر من الحيوانات. . . كنت أملك ستمائة معسلة، ما بين خمسة وستة آلاف كيلة من القمح والشعير، وعدة آلاف من الهكتارات. . . " [(10)]

المنارة للاستشارات

هذا فضلا عن المحلات والتجارة حتى قيل أن ثروته فاقت الأربعين مليون فرنك عشية الاحتلال.

4/ الرحلات العلمية والتجارية: عُرف حمدان بن عثمان خوجة بالترحال منذ صغره سواء للدُربة على عادة أهل الجاه والمال أو للتجارة، كما قام بالعديد من الرحلات شملت: اسطنبول والدول الأوربية (إيطاليا واسبانيا وانجلترا) وتونس وغيرها. حيث كانت رحلته إلى اسطنبول في 1784 صحبة خاله وخلالها زار عدة مدن في أوربا الغربية سنة 1820، ومنها فرنسا وتعلم الفرنسية خلالها، وقيل أنه قضى حوالي سبعة عشر عاما خارج الجزائر[11]. ونعتقد أن هذه الرحلات لها من الفوائد الجمة التي أكسبت حمدان معرفة الدول والمجتمعات وأنواع الحكم ومظاهر الحضارة الأوربية والشرقية والأفكار الجديدة فصقلت شخصيته بنظرة جديدة للتعامل مع الحياة ومكنته من خطاب يتلاءم مع الواقع الجديد في الجزائر. وأصبح عارفا بدروب السياسة والحكام[12]. وهذه الرحلات واكبت زخما كبيرا في عالم الثورة الفكرية في أوربا: شعارات القومية، الأقليات المضطهدة، حركة التنوير، الحريات المدنية، شعارات المساواة، التجربة الليبرالية، الديمقراطية،. . . ولم يخف إعجابه بأنظمة بعض الدول الليبرالية قائلا: " لقد عشت في أوربا وتذوقت ثمار الحضارة وإني اعتبر نفسي أحد أولئك الذين يعجبون بالسياسة التي تمارسها بعض الحكومات "[13]

ثانيا: البعد الوطني

كان البعد الوطني والارتباط به حاضرا في كتاباته بالموازاة مع الولاء للخلافة الإسلامية. وفي ثنايا الخطاب كان دائما يكرر عبارات: عبدكم الحقير الجزائري، باسم الشعب الجزائري، أهل الجزائر، وهي تحمل تشبثا بهذه الأرض. وقيل أنه أول من طرح " الجزائر للجزائريين"[(14)] ، فمن خلال رسائله الموجهة للجهات المختلفة نقف على حضور هذا البعد باللفظ والمفهوم ويعد ذلك صرخة كبيرة في هذه المرحلة في وجه فرنسا، واعتبرها فرصة لكي تترك فرنسا إدارتها لأبناء البلد فتُمهد الطريق لسائر الشعوب لتقرير مصيرها، وتعجب عن دعم الدول الأوربية وفرنسا خاصة لتحرير اليونان والبولنديين وتتجاهل وضع الجزائر وأن أعمالها الوحشية بها لن تفيدها. وأكد أن عبارة الجزائر

المنارة للاستشارات

للجزائيين هي الإطار الأمثل الذي يمكن أن تجد فيه أحسن وسيلة تساعدها على الانسحاب من الإيالة بكل شرف [15].

وفي هذا الكلام دعوة للوطنية بصريح العبارة وحق الجزائريين في حكم بلادهم على غرار الشعوب الأخرى التي تريد استقلال أوطانها وحق أممها في أن تكون وحدة سياسية مستقلة وفي نفس الوقت كان يرى أن السلطات العثماني هو صاحب الأمر والنهي كخليفة للبلدان الإسلامية، إذن فالوطنية عنده تنضوي تحت الدائرة الإسلامية الكبرى.

وفي حديثنا عن الوطنية والبعد الإسلامي في خطابه وكلماته لابد أن نبين الوجه الآخر الذي اتهم به حمدان خوجة بأنه كان مدافعا عن مصالحه الشخصية وخاصة أنه كان من ذوي الجاه والنفوذ والمال والأملاك الواسعة بالعاصمة وضواحيها. وهو ما كان يدحضه بقلمه من خلال الرسالة الموجهة للسلطان العثماني قائلا له رغم الظروف الصعبة " كان يسعني كما وسع غيري وأسكت، لكن يا أخي الغيرة الإسلامية حملتني على أن أكتب وخاطرت بنفسي وأعلمتكم "[(16)]

وهذا النشاط الذي سجله في بداية الاحتلال الفرنسي مع بعض الشخصيات [17] الأخرى أطلق عليه من قبل بعض المؤرخين بأول حزب وطني قاد المقاومة السياسية من خلال العرائض الموجهة للسلطات الفرنسية بالجزائروفرنسا والتذكير بالوعود المتفق عليها والمظالم الكبيرة في حق الشعب الجزائري، ومن بين هذه العرائض كان طلب لجنة تحقيق للنظر في هذه المظالم، كما بعث خوجة رسالة في جويلية 1933إلى الملك لويس فيليب للتدخل الشخصي وحق الجزائريين في الحرية قائلا: " للجزائريين الحق أيضا في التمتع بالحرية وكل الفرص التي تتمتع بها الأمم الأوربية "[18]

ولم تكتف هذه النخبة وعلى رأسها حمدان خوجة بتوجيه العرائض بل نقلت نشاطها إلى فرنسا من خلال الصحافة والمؤتمرات والاستجواب والرسائل والمشاورات. . . وغيرها للتأثير على المجلس الوطني والرأي العام باستنكار تصرفات الجيش الفرنسي وحق الجزائريين كبقية القوميات في الحرية[19]. واستفاد من الأفكار الجديد في أوربا ومحاكاتها

المنارة للاستشارات

لصالح قضيته فطالب بأن يكون للجزائريين كيان وحق في الوجود كبقية الشعوب والأمم الحرة المستقلة [20].

وساهم هذا الجهد في إرسال لجنة تحقيق للجزائر" اللجنة الإفريقية " [21] وإن خاب الأمل في أي ثمار من ورائها رغم اعترافها بسوء تصرف الجيش الفرنسي وخرق الاتفاق، ولكنها أوصت بإلحاق الجزائر بفرنسا

ثالثا: الموقف من بعض الشخصيات الجزائرية

أما دراستنا لفن الكتابة عند حمدان بن عثمان فيما يتعلق بالقضايا الداخلية فهي كثيرة ولكن نأخذ نماذج معينة منها فقط. فهناك الكتابات الوصفية المتعلقة بالأشخاص وخاصة التي عايشها مثل الداي حسين أو أحمد باي أو الأمير عبد القادر و بوضربة ، وغيرهم. فنجد أن هذه الكتابات المتعلقة بالمناقب وتقييم الموقف تخضع لعلاقة حمدان بن عثمان معهم والصلات التي تربطه بهم ومدى تجانس مواقفه مع مواقفهم من الوضع القائم وخاصة الاستعمار.

فعندما يتعرض للداي حسين باشا آخر دايات الجزائر فإنه يُجله بعبارات الاحترام والصدق والتفاني في خدمة الأمة الجزائرية، وأنه من أطيب أرومة الأتراك، وهو معروف بالوفاء بالعهود لدى أوربا، ويصل إلى إبعاد المسؤولية عنه في ترك الحكم لأن الحظ لم يحالفه بسبب أخطاء حاشيته وجنوده وأن بعض أعضاء ديوانه " لا أخلاق لهم ولا خبرة ولا شجاعة وقد كان ينوي إبان حكمه أن يعيد نظام الحكومة إلى نصابه. . . " فهو – حمدان- لا يلوم الداي فيما آلت إليه الأمور وأن منفاه كان اضطراريا، وهنا نقف أيضا على مدى العلاقة والحميمية التي كانت بينهما فأضفت بإعطاء الصورة المبررة لكل أعمال الداي ورمي المثالب على الحاشية، كما أن عبارات التعاطف ظلت قائمة في كتاباته تجاه الداي حسين.

وفي مكان مختلف حول الكتابة عن الأشخاص يعرض مثالا آخر عن أحمد باي ويضعه بنفس مقام الداي حسين باشا من حيث الاحترام وعبارات الثقة والصدق وتقديمه على أنه الرجل الأمثل للمرحلة لكي يمثل الجزائريين ويحث السلطان محمود الثاني على دعمه بكل السبل عساه أن ينقذ البلاد.

ومن المعلوم أن حمدان بن عثمان خوجة كان من العارفين بدروب السياسة والاتصال وحسن العلاقة مع أحمد باي وحاولت السلطة الفرنسية استغلال ذلك من

المنارة للاستشارات

خلال المهمة التي قام بها بتكليف من فرنسا وتحديدا " دي روفيقو " [22] بالاتصال بأحمد باي في جنوب قسنطينة بهدف الوساطة والتفاوض أو وضع السلاح، وهذا من خلال ما أدلى به ابنه **علي أفندي** الذي رافقه في هذه الرحلة التي كتبها بطلب من (DE SAULCY) الذي تولى عدة مناصب إدارية وعلمية وترجم هذه الرحلة عام 1838 [(23).]

وبالمقابل كان يتجاهل الأمير عبد القادر، ويقلل من شأنه، بل يذم بوضربة الذي يراه يناصر الأمير ويعمل على اقتراحه كأمير للبلاد. وفي عبارات جارحة يصف بوضربة بالخائن واللعين. وفي معرض حديثه عن الذين تعاونوا مع السلطة الفرنسية أنهم كانوا قلة ووصفهم بالخونة وذكر من بين هؤلاء بوضربة الذي وصفه باللعين وأن زوجته فرنسية، واصفا إياه: هذا تخليط بوضربة، ليس وحده بل له بطانة في الجزائر أراذل سفلة مثله. واستطرد حمدان خوجة في ذم بوضربة على أساس أنه كان قريبا من الأمير عبد القادر ويقول أنه توسط للصلح بينه وبين الفرنسيين ليولوه على البلاد " يسموا له البلاد". ويصرح حمدان خوجة بالقول أنه كان يؤيد أحمد باي [24] على حساب الأمير عبد القادر الذي يسانده بوضربة، ولهذا توسع في مدح الأول وذم الثاني ومعه بوضربة في رسائله للسلطان محمود الثاني. ويرى في الأول وريثا شرعيا للحكم العثماني وتواصلا للسلالة الحاكمة، ويصف الثاني أنه " أحد العرب". [(25)]

وهذا يدل على أن حمدان قد دخل في عمق السياسة ليس كمحلل أو كاتب راصد للأحداث وتصرفات الأشخاص ولكنه كان قريبا من هذه الشخصيات وفاعلا في توجيه الأحداث وبالتالي كان طرفا بطريقة غير مباشرة وانعكس هذا على كتاباته بين الذم والمدح، والتصديق والتخوين والاقتراح والإبعاد وإظهار المثالب وإبراز المحاسن، وبالتالي ليس غريبا أن تصدر من حمدان مثل هذه المواقف لأنه يرى أنه صاحب علم ونظرة في الحياة، وترحال في البلدان وخلطة برجال الحكم والسياسة وإحساس بالمسؤولية بأن يدلي برأيه في مسار الأحداث.

رابعا: الخطاب الموجه للباب العالي

1/ معالم الخطاب السياسي الموجه للباب العالي

اعتبر نفسه يحمل مسؤولية هامة في رفع حجم معاناة هذا البلد للباب العالي عساه أن ينقذه من براثن الاستعمار فكتب يقول " إن الشعب الجزائري قد عقد إلي مسؤولية الاتصال بالباب العالي واطلاعه على وضعيتنا بما سنبعثه من تقارير لسيادتكم"

المنارة للاستشارات

[26]. ففي هذا الجانب يمكن تحديد معالم الخطاب السياسي لمراسلاته الخارجية وخاصة الموجهة للباب العالي والتي جاءت في المرحلة الأولى للاحتلال على أنها تتمحور حول المحاور التالية:

- السعي ولو بجهد المقل لاستعادة سيادة البلاد
- توخي الدعم الممكن من الباب العالي لأهل البلاد
- دعم أحمد باي كحاكم شرعي لا يزال يقاوم
- إبراء للذمة أمام الله
- إبراء للذمة أمام سكان البلاد الذين حملوا مسؤولية الاتصال بالباب العالي.
- تحميلا للمسؤولية الملقاة على عاتق السلطان العثماني.
- واجب المرحلة وما يقتضيه من تحديد للمسؤولية.

2 / العتاب الموجه للباب العالي

هناك العديد من الرسائل التي تحمل عتابا وتحميلا للمسؤولية للباب العالي ولكن استعرضنا القضايا التي أبرزها بقوة في كتاباته. ففي إحدى المواطن يكتب بصوت عال " أنا قد جاهدت بقلبي، والرعايا بسيوفهم، فجاهدوا بألسنتكم، الغياث الغياث، الفرنسي لا يخرج من الجزائر إلا بقوة سلطانية ومواعيده لا أصل لها، وتعديه كل يوم يزداد. . . أنا كتبت وبينت وأنتم يحرم عليكم السكوت" [27]. فنلاحظ وجود جرأة قوية في تحميله للسلطان المسؤولية إذا لم يقم بواجبه تجاه هذه البلاد وبنبرة دينية حادة، وفي مقام آخر يوجه له عتابا صريحا بأن سلطاننا يعلم أنه المسؤول عن هاته البلاد. وأحيانا ينقل للسلطان صورة عن الرأي العام بالجزائر وما يتداوله تجاه السلطان " إن عددا من الأشخاص قد جاؤوا إلى عبدكم قائلين: " إن سلطاننا قد تركنا في أيدي وكان يجب حسب ديننا أن يأتي لمساعدتنا، إننا يوم القيامة سنتوجه إلى العالي جل جلاله قائلين: " إن سلطاننا قد تخلى عنا بحيث أن ذلك لم يكن قد ساعدنا " ألَا إن السلطان سيجيب: " لقد كنت مشغولا بمشاكل أخرى، ولكن الله لن يقبل منه هذا الجواب". [28]

وربما كانت جرأته في مخاطبة السلطان العثماني حول قضية الجزائر حملته على القول: " فإذا كنا مذنبين فلتسامحوننا، وإن حكمتم علينا بأننا مجرمون، وإنكم لا تغتفرون لنا هاته الزلة، فإن الواجب يحتم عليكم يا حضرة السلطان أن تعاقبوننا (كذا)

المنارة للاستشارات

لا تدعوا العدو يعاقب أبناءكم، لا فإن سيدنا السلطان رمز الصفاء والشرف، ذا الأخلاق الربانية، لا يتركنا. . . "[29]

3/ طبيعة الخطاب الموجه للباب العالي:

إن تناول الخطاب الموجه للباب العالي لفهمه من حيث المبنى والمحتوى نجري تحليلا لطبيعة فن الكتابة والترسل التي مارسها حمدان بن عثمان خوجة في باب الرسائل الموجهة للباب العالي بأسطنبول، وإن كانت هذه الرسائل كثيرة فإن المطلوب منا هو معرفة الخطوط العامة لهذه الرسائل في مبناها وخطابها والأهداف الكبرى التي تحملها.

فمن حيث المبنى فإن هذه الرسائل في عمومها تتميز بالطول المطلوب الذي يصل إلى أربعة صفحات أحيانا أو تزيد قليلا وربما مس هذا النوع من الرسائل التي يتطلب عرض الحال وتفسير الأحوال بهدف الإقناع بأفكاره، إضافة إلى ذلك فهو يعتمد على ألفاظ بسيطة في الغالب ومتداولة بين الجميع في لغتها العربية أو مصطلحاتها ولا نجد صعوبة حتى يومنا هذا في دراستها وفهمها. وربما نقول إنها لغة تميزت بالمعاصرة وبالدبلوماسية واللباقة. ومن جهة أخرى فهو عادة ما يعرض كلامه على أربعة مراحل:

أولا: عبارات الاحترام وما تحمله من كلمات تليق بمقام المخاطب وإظهار الولاء

وثانيا: عرض الحال وتحليله وتفسيره وتقديم الدلائل السياسية والاجتماعية والثقافية الممكنة، والإمكانيات التي تخص الطرف الجزائري والعدو الفرنسي.

وثالثا: تقديم المقترحات التي يراها مناسبة من خلال معاينته للأمر الواقع وذلك في أسلوب تدليلي تعليلي، وأخيرا يقدم نفسه في خاتمة الأمر في صورة الناصح، والمتواضع أمام هيئة الباب العالي أو السلطان مبرزا ولاءه ودعواه بالنصر له، وأحيانا أخرى يعرض ذلك باسم الشعب الجزائري. [30]

أما طبيعة الخطاب الذي تتضمنه الرسائل فهو في الغالب خطاب سياسي من حيث الأفكار المطروحة وما يقتضيه الحال من عبارات التشريف "صاحب الجلالة، سلطان العالم الإسلامي، . . . " وعبارات التعظيم والمدح رمز العطف والنصر، ملجأ المسلمين، والضعفاء، رمز الدين، والعبارات الرسمية: رئيس الحكومة، سيدنا السلطان (محمود)، حضرة السلطان. . . .

ومن جهة أخرى حضور خطاب المناشدة والتوسل بالدعم والصرخات والاستعطاف من خلال عرض الحال المزري، أو طلب النجدة ومن ذلك عبارات: الغياث،

المنارة للاستشارات

الغياث، إن عبدكم يترجاكم أن تنقذوا العباد من هذه المصيبة، أشفقوا على من في هاته الأرض [31].

خامسا: الدعوة للتمسك بالقيم النبيلة ونبذ الظلم

يتضح من خلال مراسلاته دعوته إلى اليقظة الشاملة، وهذا من خلال نبذ التعصب وتطهير الدين من الشوائب التي علقت به وجمود للعقول، كما نادى بالتفاهم بين الحضارتين الأوربية والإسلامية، فهو يرى نوع من التقاطع بين مبادئ الشريعة ومبادئ الحرية التي ظهرت في أوربا، وفي نفس الوقت كان يدعو للتجديد والتقدم في ميادين العلم والمعرفة وكتب في رسالة للسلطان محمود الثاني " إن كل عصر له متطلباته وخصائص جديدة، ولدى ظهور عادة حديثة وجب التخلي عن القديم حتى نتفادى حدوث اضطراب وقلق في الشعب وحتى لا يعرقل ذلك دولاب سير الإدارة الناجحة ". [32] ولا يرى مانعا في الاستفادة من الشعوب الأخرى ومن تجاربهم في إصلاح الحياة.

وكان منحاه واضحا في مراسلاته بالدعوة إلى الحكم الشورى والديمقراطية وقال إن القرن التاسع عشر. هو قرن التنوير والحضارة والعدالة، وعلينا أن نغرف من هذه القيم، وأن الأعمال الجائرة من الحكام توهن عزيمة الشعب بأكمله.

ومن خلال تبحره في العلم، وتجربته في الخلطة والترحال مع أهل العلم والسياسة كانت له رؤية نحو نجاعة الحكم وصلاحه وذكرها في كتابه المرآة، وأتحاف المنصفين جاء فيها " يجب على الحاكم أن يتخلص من أهوائه الذميمة وأن يكون قويا رحيما، لا طاغية حقورا. . . لا ينبغي له أن يقوم بأعمال تثير الظنون وأن لا يكون له سلوك مشبوه ومطبوع بغضب مخز. . . كما يجب عليه أن يجتهد في تخفيض أسباب الجنوح لأن البؤس كثيرا ما يؤدي إلى الأعمال الشريرة" [33]

وبالمقابل فإن الأعمال الصالحة الرعية تمكن الحاكم من استمالة القلوب، وعلى الحاكم أن يكون كَرَب أسرة في العدل بين جميع أبناء الرعية وتفادي التمييز والنميمة، وفي كل هذه الحالات يضرب أمثلة بحكام فرنسا في الجزائر (كلوزال، ودوبورمون الذين أساؤوا التصرف والحكم، فكان الكره لهم).

وعاتب الفرنسيين بأن الحضارة والمدنية الحقيقية ليس بالشعارات ولكن تتم "بواسطة أناس مجربين يميزون بين احترام الإنسان ومصالحهم " [34] وأن الحضارة لا تكون باحتقار أمة لأخرى أو بالغزو الثقافي لها أو ارتداء أجمل الثياب ولكن الحضارة عند

المنارة للاستشارات

المسلمين " هي اتباع الأخلاق الشاملة والعدل إزاء الضعيف والقوي على حد سواء والمساهمة في إسعاد الإنسانية، التي تشكل أسرة كبيرة واحدة. . . " [35].

سادسا: الخطاب الموجه للفرنسيين

أما كتاباته التي تعرض تصرفات الفرنسيين وسلوكهم تجاه الجزائريين فكانت بدون شك تحمل عبارات الأسى والحسرة. وفي نفس الوقت يضع قادة فرنسا بالجزائر أمام ضمائرهم، ويشعرهم بانفصالهم عن قيم حضارتهم وبالشعارات التي روجوا لها، مستخدما هذه العبارات لوخز ضميرهم وشعورهم الإنساني لمعالجة قضية سياسية، وخاصة أن حمدان خوجة العارف بشؤون أوربا والذي عاش فيها مدة من الزمن كان يذكر الفرنسيين بالعهود وقيمتها بين الأمم.

فنجده يصف إدارة دوبورمون بأنها " أصبحت ذات قوة وسلطان في ميدان التخويف والتهويل. . . "، " وكان في إمكان السيد بورمون أن يستشير السكان. . قبل أن يلجأ إلى وسيلة الجور والظلم، فهو لم يهتم باحترام شروط المعاهدة التي أمضاها هو بنفسه. . . ". [36]

وفي مقام آخر " كان السيد دوبومون يدعي أنه أتى إلى بلادنا ليزيل الظلم والاستبداد ويحصل مكان ذلك قوانين مبنية على أساس العدل والإنصاف. . . " إذن فأين هؤلاء الفرنسيين المفتخر بهم "[37].

وكان قد أسس لجنة المغاربة للدفاع عن أبناء وطنه وهو ما جلب له ومن معه من المعارضين النفي بتهمة التآمر على الحكم[38]. وفي 10جويلية 1833 بعث برسالة إلى لويس فيليب طالبا منه التدخل للنظر في أوضاع الجزائريين" وحقهم في التمتع بالحرية وكل الفرص التي تتمتع بها الأمم الأوربية"[39]. وهو ما حمل الملك الفرنسي على تشكيل اللجنة الإفريقية في صيف 1833 التي وصلت إلى الجزائر في 02 سبتمبر 1833. [40]

ويعتبر كتاب المرآة استمرارا لرسائله الموجهة للرأي العام من خلال الاتهامات المباشرة الموجهة للفرنسيين في الجزائر وفيه أيضا برنامجا لآمال الجزائريين. وقد وجه حمدان خوجة رسالة إلى اللجنة الإفريقية في 26 أكتوبر 1833 مصحوبة بنسختين من كتابيه المرآة، والمذكرات. وهذه كلها عبرت للفرنسيين على أن الرجل له باع كبير في الاطلاع على القيم الأوربية والأفكار القومية والاصطلاحات المتداولة (الكيان الجزائري، الأمة الحرة المستقلة،القيم الليبرالية، الديمقراطية الحضارة، الانتخاب،الأمة المتحضرة. . .)

المنارة للاستشارات

[41]، والتي تعبر عن ثقافة عالية في مجال القانون والأعراف الدولية وحقوق القوميات والقيم الإنسانية ومتطلبات العقود والالتزامات.

ومن هنا اعتبره الدكتور سعد الله ليس رائدا للوطنية الجزائرية فحسب ولكنه رائدا لفكرة الجامعة الإسلامية والقومية العربية التي ستشكل حركتين قويتين فيما بعد، ومثل النموذج المبكر لعصر التنوير الناتج عن الاتصالات بين الشرق والغرب. [42]

والشاهد في هذا المحور أن الكتابات التي صاغها حمدان والموجهة للفرنسيين أو التي تحمل على توصيف الحال بالجزائر وتوصيف الممارسات الفرنسية. ركزت على عبارات اللوم والعتاب للفرنسيين على نكث العهود، وعلى إبراز مظاهر الظلم والاستبداد، وعلى النهب، ومصادرة الأملاك العامة، وخاصة الأوقاف الدينية، وأملاك الجمعيات ويضع هذا كله أمام ما حمله الفرنسيون من شعارات، الحرية، والإنسانية والتحضر، والقوانين وهذا النوع من الكتابة كان سابقة مبكرة في تاريخ الجزائر سواء من ساستها أو كتابها.

وفي مثال آخر عن كتابات حمدان خوجة والمتعلقة بالعمل الدبلوماسي نقف على رسالته الموجهة إلى اللجنة الإفريقية التي أرسلت للجزائر سنة 1833 فإنه ضمن هذه الرسالة التي تضمنت تقريرا شخص فيه حالة الجزائر وسكانها، ووضع الأملاك، وأن الوضع العام قبل الاحتلال تميز بالثراء والوفرة وخاصة الحبوب التي هي سبب غزو فرنسا للجزائر حسب حمدان.

الخاتمة:

نعتقد أن البيئة التي عاش فيها حمدان بن عثمان خوجة ساهمت في بناء شخصيته، وصار من العارفين بشؤون الحكام والسياسية والشعوب[43]، واتضح ذلك بشكل جلي في مراسلاته الداخلية والخارجية ودهائه السياسي. ويعد حمدان من بين النخبة التي ساهمت في العمل السياسي والفكري لهذه المرحلة ولعب دورا مهما في طرح القضية الجزائرية في بداية الاحتلال الفرنسي للجزائر ثم بعد مغادرته نهائيا في 1833. ويمكن القول إنه أول من أسس للعمل السياسي والنضالي من أجل القضية الجزائرية في عهد الاحتلال. وأن بعض السياسيين والإصلاحيين الذين جاؤوا بعده استلهموا منه بعض أساليب العمل السياسي، وواصلوا المسيرة. [44]

وإذا كان له منحى سياسي قوي في الأسلوب والخطاب فقد يتميز بالطلاقة والمباشرة، وتصيد المصطلحات والأفكار، وله خطاب يحمل دلالات التمرس واللباقة

المنارة للاستشارات

السياسية، ويعتمد على اختيار الكلمات للتدليل على أفكاره وطرح الحجة القاطعة والبرهان اللازم لمخاطبه. ومن خلال المراسلات الموجهة لمختلف الجهات نقف على أن الرجل تملك أدوات الخطاب السياسي السائد في تلك المرحلة وخاصة في أوربا، واطلع على الكثير من لأفكار المتعلقة بحقوق الشعوب والقوميات والحق في العيش، والديمقراطية، والحرية، وما أفرزته حركة الاستنارة في أوربا. مستخدما هذه القيم للمطالبة برفع المظالم الفرنسية.

وهذه الحنكة السياسية واللغوية ساعدته على خوض غمار المراسلة وتمثيل الجزائريين، والتأسيس لعمل سياسي مبكر ومخاطبة الحكام الفرنسيين والسلطان العثماني في ظل تناول قضايا سياسية في غاية الأهمية من التعقيد والخطورة وخاصة ما تعلق بقضية احتلال الجزائر والانتهاكات الحاصلة ومكاتبة السلطان العثماني وتحميله المسؤولية. ولم يخف عتابه الصريح للباب العالي إزاء الموقف اتجاه الجزائر، وربما ثقل الموقف بما لا يدع مجالا للتورية وضرورة المصارحة وتحميلا للمسؤولية جعل حمدان يقول للخليفة أطلب منكم العفو على جسارة هذا التقرير في إحدى المراسلات.

وإن كنا نستشف وكأن حمدان لم يكن يتوقع تدخلا عسكريا عثمانيا مباشرا بقدر ما كان يطلب المساعدة بالجند والمال وتعيين حاكم على هذه البلاد واقترح أن يكون الحاج أحمد باي الذي قال عنه أنه لم يتصالح مع الفرنسيين وهو رجل شجاع وعاقل، ويقترح أنه من اللائق في هذه المرحلة منح لقب باشا على حاكم للبلد حتى يطيعه الناس وعليه إشعار حكام تونس وليبيا على التعاون وحسن الجوار ومد يد العون لسكان الجزائر في هذه المرحلة الصعبة.

وبالمقابل أفصح عن معارضته لتوجه الأمير عبد القادر ومن يناصره في هذه المرحلة، وربما البيئة التي عاش فيها وقربه من أحمد باي والسلطة التركية كانا لهما التأثير الكبير على هذا الموقف معتقدا أن أحمد باي مؤهل لإنقاذ البلاد ويمكن أن يلقى دعما تركيا. ورغم خطورة الموقف فقد خاض غمارا سياسيا صعبا في وجه السلطات الفرنسية مذكرا إياها تارة بالعهود المقطوعة للجزائريين، وأخرى محاكما لها بمنظومة القيم الليبرالية والحرية وشعارات الثورة الفرنسية التي تغنت بها، وقد تنوعت وجهة رسائله فنجد:

المنارة للاستشارات

الرسائل الرسمية للحكام والساسة والقادة العسكريين، وأخرى للرأي العام والمتنورين الفرنسيين.

والملاحظ أن حمدان خوجة لم يترك بابا إلا طرقه من أجل القضية الجزائرية، ولا طرفا إلا ناشده للتخلص من ربقة الاستعمار، محاولا التعاون من النخبة الوطنية ومستجديا بالسلطة العثمانية ومخاطبا الساسة الفرنسيين، محملا كل طرف مسؤوليته بالنظر إلى المظالم الحاصلة، والأملاك المصادرة.

وهذه الجهود التي كانت تصطدم بالإرادة الفرنسية والإصرار على إكمال الاحتلال رأت فيه عنصرا مشوشا قد يتطور ويتفاعل مع المقاومة الشعبية القائمة. لذلك ضاقت به ذرعا ونفته خارج البلاد. وشمل هذا الإجراء معظم الناشطين سياسيا لتبقى لغة المقامة العسكرية تصنع المشهد في الجزائر طيلة القرن التاسع عشر.

قائمة المصادر والمراجع

1 . كان مفتي الجزائر، من مواليد 1189هـ وقابل اللجنة الإفريقية، ونفي لمصر بسبب مواقفه من السلطة الفرنسية وتوفي بها في 1278 هـ أنظر: سعد الله أبو القاسم، أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، ج 2، ط 2، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1990، ص 14.

2 . هناك من أخلط بين حمدان خوجة وابن خوجة الذي ظهر في مطلع القرن العشرين، وذكر حياته بين (1875 . 1915) وهذا التاريخ غير صحيح. أنظر:

Eencyclopédie des savants et des hommes de lettres Algériens , directeur de l'ouvrage ; khaddouci rabah , dar el -hadhara , 2002 , p 253.

3 . عبد الحميد زوزو، حمدان خوجة ومنهجه في كتابة التاريخ، الأصاله، المجلد 10، العدد 4، منشورات وزارة الشؤون الدينية، الجزائر، 2011، ص 88.

4 . حمدان بن عثمان خوجة، المرآة، تقديم وتعريب وتحقيق محمد العربي الزبيري، ط2، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1982، ص 2.

5 . بوعزة بوضرساية، سياسة فرنسا البربرية في الجزائر 1830 . 1930 وانعكاساتها على المغرب العربي، دار الحكمة، الجزائر، 2010 . ص 140.

6 . سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية، ج2، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، ط 2، الجزائر، ص 29. وتشير مصادر أن والده كان عالما في الفقه والأصول والتاريخ.

7 .. حمدان بن عثمان خوجة، مصدر سابق، ص15.

المنارة للاستشارات

8 .MAHFOUD KADDACH، DJILALI SARI , Lalgerie dons l'histoire n 5 , OPU , ENDL , Alger , 1989 , p 14,15.

9 . في رسالة إلى لويس فيليب في 19 جوان 1835

10 . حمدان بن عثمان خوجة، مصدر سابق، ص 18.

11 . سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية، مرجع سابق، ص 29.

12 . عميراوي أحميدة، جوانب من السياسة الفرنسية وردود الفعل الوطنية في قطاع السرق الجزائري، ط 2، دار الهدى عين مليلة، الجزائر، 2005، ص 52.

13 . سعد الله، مرجع سابق، ص 35.

14 . عبد الجدليل التميمي، مرجع سابق، ص 114

15 . معظم المؤرخين الفرنسيين يتجاهلون أو ينفون وجود وطن جزائري له معالم محددة قبل الاحتلال، وبالتالي فالوطنية الجزائرية في نظرهم غير موجودة قبل الاحتلال وان الدولة الحديثة ظهرت معه، وهذا من أجل شرعنة الاحتلال. أنظر:

- LAHAOUARI Addi, l'impasse du populisme ,L'algerie ,collectivite politique et etat en construction , E N AL, Alger, 1990 , P 24, 25.

16 . حمدان بن عثمان خوجة، مصدر سابق، ص 120.

17 . ضم خوجة، وأحمد بوضربة، وحمدان آغة، ابراهيم ابن مصطفى وابن عمر.

18 . سعد الله، مرجع سابق، ص 30.

19 . نفسه، ص 31

20 . نفسه، ص 33.

21 . كانت هذه اللجنة في 07 جويلية 1833. أنظر: محمد العربي الزبيري، مذكرات أحمد باي وحمدان خوجة وبوضربة، ط2، الشركة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1982، ص 132.

22 . مولود قرين، النخبة الجزائرية مواقفها الوطنية واهتماماتها العربية والإسلامية، أطروحة دكتوراه، إشراف عبد المجيد بن عدة، المدرسة العليا للأساتذة، الجزائر، 2017/2016، ص 33.

23 . عميراوي أحميدة، محاضرات في تاريخ الجزائر الحديث، ط2، دار الهدى عين مليلة، 1425هـ 2004، الجزائر، ص 169. ومن خلال ما جاء في تفاصيل هذه الرحلة فإن حمدان خوجة كان يحظى بتقدير كبير لدى أحمد باي.

24 . كان يرى في نفسه الجدير بقيادة البلاد والكفيل بإرجاع هيبة الدولة، والتحق به الكثير من الأتراك والكراغلة وفرسان المخزن بالجهات الشرقية. أنظر: سعيدوني ناصر الدين، الجزائر منطلقات وآفاق، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 2000، ص 101.

25 . حمدان بن عثمان خوجة، مصدر سابق، ص 120.

26. عبد الجدليل التميمي، مرجع سابق، ص 114.

27 . عبد الجدليل التميمي، بحوث ووثائق في التاريخ المغربي الجزائر، وتونس، وليبيا 1816-

المنارة للاستشارات

1871، ط2، منشورات ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ص. 14.

28 . نفسه، ص 116.

29عبد الجدليل التميمي، مرجع سابق، ص 115.

30 عبد الجدليل التميمي، مرجع سابق، ص 118.

31نفسه122.

32 عمر قينة، صوت الجزائر في الفكر العربي الحديث (أعلام وقضايا. . . ومواقف. . .)، الديوان الوطني للمطبوعات الجامعية، الجزائر، 1993، ص 15.

33 . حمدان بن عثمان خوجة، مصدر سابق، ص 25.

34 . مولود قرين، مرجع، سابق، ص 36.

35 . نفسه، ص 36.

36 . عمر قينة، مرجع سابق، ص 15.

37 . نفسه، ص 15.

38 . نفسه، ص 32.

39 . سعد الله أبو القاسم، الحركة الوطنية الجزائرية، ج 2، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1999، ص. 31.

40 . نفسه، ص 35.

42 . نفسه، ص 36.

43 . عميراوي أحميدة، جوانب من السياسة الفرنسية وردود الفعل الوطنية في قطاع السرق الجزائري، ط 2، دار الهدى عين مليلة، الجزائر، 2005، ص 52.

43 . يمكن أن نقف على ذلك من خلال تصفح الأدبيات السياسية والفكرية للعديد من الشخصيات الإصلاحية ورواد الحركة الوطنية في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين. أنظر:

ا . سعد الله2002 , alger , OPU , 1831-1957 , LE mouvement reformiste Algerien

المنارة للاستشارات